ألمس جرترود لوثيان بل

MISS GERTRUDE LOWTHIAN BELL

ان اسم هذه النابغة يغني عن التوسع في سرد سيرتها والتبسط في رواية اخبارها لما حازتهُ من الشهرة البعيدة في محافل العلم واندية السياسة في العالم القديم والحديث . وانما اكتب هذه المقالة لما لهذه الآنسة من العلاقة بالمسألة العربية عموماً وبالقضية العراقية خصوصاً. فيهمني ان اخاطب بني قومي العرب عن صديقة العراقيين التي دافعت عن قضيتهم سرًّا اكثر مما عرف عنها جهراً وذلك لما كان موقفها في ابان ثورة العراق يقضي ذلك التدبير

لم تكن اول من اشتهر من اسرتها الكريمة تلك الاسرة التي موطنها شمالي بلاد الانكليز في تخوم اسكتلاندا بل سبقها غيرها فقد كان جدها الاعلى اول من سعى في تأسيس المعامل الكبرى لتعدين الفحم والحديد لما ارتقت الصناعة ارتقاءها العظيم في الثلث الاول من القرن الماضي وكان معهُ رجلان آخران من البريطانيين سعيا سعيهُ في تلك البلاد لرقي الصناعة . وقد خلّف جد والدها قسطاً وافراً من الغنى . ولا يزال والدها السر هيو بل حيًّا يرزق وقد لقيتهُ يوم نزل بغداد سنة ١٩٢٠ وهو شيخ قد كللهُ البياض باكليل الوقار والهيبة يطفح البشر من وجههِ وتقرأ آيات اللطف على محياهُ ووالدتها حية ايضاً ويروى عنها انها من ذوات المناقب السامية والفضل الجزيل

ان المس جرترود نبعة تلك الدوحة الباسقة وقد ظهرت امارات الذكاء والنبوغ عليها منذ حداثتها كما ان تلك الامارات بقيت تنمّ عن قدرتها وتوقد ذهنها حتى اليوم فلا يقع نظرك عليها الاّ وترى في تيك العينين شعلة نار تدل على سمو عقلها وفي جسمها النحيف ظواهر جدٍّ واتعاب عانتها منذ صباها حتى كهولتها وفي خفة حركاتها لوائح همة عالية وعزيمة ماضية لا تكل ولا تفتر

وقد والتها الايام ومهّدت لها السبل لتثقيف تلك السجايا الادبية والعقلية فتلقت العلوم والآداب في المدارس العالية وآخر معهد دخلتهُ جامعة اكسفرد الطائرة الشهرة. فنالت الشهادة العليا من الطبقة الاولى

وقد كان الداعي الى شغفها بالشرق رحلة قامت بها سنة ١٨٩٩ مع امرأة خالها المستر سفرنك لسلس الذي كان سفير بريطانيا في طهران (١) وما حلت في تلك الديار الاَّ واغرمت بدرس اللغة الفارسية واستخرجت عدداً من قصائد حافظ الشاعر الفارسي الطائر الشهرة الى اللغة الانكليزية

وكأني بهذه النابغة قد خلب لبها حب الشرق وان بلاد ايران انشأت في نفسها شوقاً الى السياحة والتجوال في العالم القديم ابي الحضارة . ففي السنة التالية ١٩٠٠ هبطت بلاد سورية وطافت في جبل الدروز واطراف البادية وكان غرضها من هذه الرحلة درس اللغة العربية فتعلمت منها شيئاً غير نزر الاَّ انها لم ترو غليلها من فصاحة لغتنا فاضطرت ان ترجع الى تلك الديار سنة ١٩٠٣ للتوسع في ضبط شواردها والوقوف على اسرارها . ومنذ ذلك الحين اخذت ترحل كل سنتين رحلة الى بلاد الشرق وكانت كل رحلة تدوم ستة اشهر . فسافرت سنة ١٩٠٥ الى الاناضول وفي سنة ١٩٠٧ نقبت في اطلال قونية

واول مرة اتت الى العراق كان سنة ١٩٠٩ وفي سنة ١٩١١ سافرت مع اخيها الى الهند واليابان ثم جاءت وحدها الى العراق . وفي سنة ١٩١٣ سافرت من الشام الى حائل ونزلت ضيفاً على ابن الرشيد . وفي ربيع ١٩١٤ جاءت الى بغداد ومنها صعدت الى الاستانة فواجهت فيها غير واحد من وزراء المملكة العثمانية كجمال باشا وغيره

وقد لاقت في سفراتها من المتاعب والمصاعب والاخطار ما كان ليثني هم الرجال ولكنها تغلبت على العقبات بعزيمة ماضية فقطعت الفيافي والقفار وتوغلت في قمم الجبال وهبطت الاودية وامتطت البحار وتشططت الانهار وخرقت طبقات الهواء فلم تثبّطها عقلة البتة

ومما هو حري بالذكر انها كانت تراقب عن كثب الحركة العربية في بدء نشأتها وكانت تجتمع بزعماء النهضة عند مرورها بسورية وتحادثهم بقضيتهم التي كان يدور محورها على الحكومة اللامركزية ولم يدر في خلدها ان الاتراك ينكرون يوماً على العرب طلبهم حتى يتسع الخرق على الراقع وتخرج البلاد من حكمهم

(١) وهو الذي كان سفير بريطانيا في برلين قبيل الحرب

ولما نشبت الحرب الكونية انتظمت في جمعية الصليب الاحمر وقضت سنة في لندن ثم سافرت الى فرنسا وهي تعطف على الانسانية المتألمة وتحنو على ضحايا الحرب وفي شتاء سنة ١٩١٥ هبطت مصر وانضوت الى ادارة السياسة وبقيت عاملة هناك حتى اواخر فبراير ١٩١٦ فانتقلت الى البصرة ودخلت ديوان الحاكم الملكي العام

وكانت هذه الوظيفة الجديدة ميداناً واسعاً للعمل في القضية العربية التي كانت قد اتضحت معالمها وظهرت بارقة النجاح متلألئة من بين الغيوم المتلبدة في جو السياسة اذ سلك الزعماء اقصد المسالك الى النهج المطلوب، وناضلوا عن استقلالهم في ميدان الحرب وديوان السياسة فاثبتو للملأ ان في القوم من دواعي الحياة واسباب العصبية ما يكفل نجاح دعوتهم واستتباب ملكهم

وقد كان لوجود الآنسة بَلْ في ديوان الحاكم الملكي العام في البصرة سمعة طيبة بين قبائل العراق فاضحت موضوع اعجاب رؤسائهم وشيوخهم وقد قال احدهم عنها في محفل حافل بعيد احتلال البصرة : ان كانت هذه اعمال امرأة من البريطانيين فما عسى ان تكون اعمال رجالهم يا ترى !

وبعد ان احتل بغداد الجنرال السر ستانلي مود في ١١ آذار سنة ١٩١٧ جاءت صاحبة الترجمة في تلك السنة مع السر برسي كوكس عاصمة العباسيين عند ما حول ديوانهُ من البصرة الى بغداد

ان رحلاتها الاولى الى بغداد قبل الحرب كانت قد خلّفت لها اصدقاء بين العرب والعرب اهل وفاء يذكرون الصديق بعد عهدٍ طويل .وان مقدرتها في تدبير الامور التي عهد بها اليها في الديوان في العراق اذاعت شهرتها بين كل طبقات الناس فعرفت « بالخاتون » واصبح هذا اللقب علماً ثانياً لها . فان قلت لعلية القوم والزعماء والامراء ورجال الجيش والسياسة من وطنيين وبريطانيين وللسواد من الناس « الخاتون » فهم الجميع انك تعني الآنسة بل

وقد رافقت في اوائل السنة الماضية المندوب السامي والوفد العراقي الى مصر لمقابلة المستر شرشل والمفاوضة معهُ في شؤون قطرنا

وهي اليوم في وظيفة السكرتير الشرقي في ديوان المندوب السامي وموضوع ثقة السر برسي كوكس في المسألة العراقية يرجع اليها في الوقوف على المعلومات

الضرورية ولا عجب في الامر لما اثبتتهُ من الحصافة وسعة الاطلاع على احوال البلاد والروح السائد بين العراقيين وكيف لا يكون ذلك وهي تفهم من الأسماء قبل اللفظ وتستغني بالرمز عن العبارة . ولها ذاكرة غريبة تردد اسماء البلدان والامصار والقبائل والاسر والرجال والنساء والوقائع والحوادث والاحاديث بدقة وضبط وان مرّت عليها السنوات وتمادت عليها الاعوام . وفي حديثها عذوبة تخلب الالباب

تنظر الآنسة بل الى القضية العربية نظرة صديق بريطاني للعرب. تسعى لنجاح النهضة العربية واستقلال بني يعرب في البلاد المنسلخة من الدولة العثمانية وقد قالت مرة في مأدبة حضرتها ان من مصلحة بريطانيا ان ترى الروح العربي سائداً في العراقيين وان حكومتها تؤيد هذه الدعوة

وهي ترى في الشبيبة العراقية عنصراً مهمًّا ودعامة قوية للنهضة الحديثة في البلاد وتودُّ ان تعضد العراقيين في اعمالهم الوطنية ومساعيهم القومية وفقاً لمطاليب الزمان وسير السياسة العامة

وهي من الذين يحترمون حلالة الملك فيصل كل الاحترام . ويمهدون السبل لرقي دولة العراق الحديثة النشأة . ولما بايع العراقيون عن طيبة خاطر الملك فيصلاً واقاموهُ ملكاً دستورياً ديموقراطياً عليهم استبشرت كل الاستبشار وعقدت الآمال الطيبة على هذه المبايعة لانها ترى في جلالتهِ ذلك الرجل القدير الذي اعدَّه الدهر ليتولى قيادة بني قومهِ ويدبر شؤونهم في فاتحة حياتهم الجديدة وهو البطل الذي تعقد عليهِ الخناصر في الميدان والديوان . فحارب جنباً لجنب مع الحلفاء واظهر قوة عارضة وحنكة في اندية اوربا السياسية

وقد بلغ بها حبها العراقيين الى تشييد مستشفى لسيدات علية البغداديين لمَّا شكون اليها ما يعانينهُ من الضيق عند مرضهنَّ في المستشفى النسائي الوحيد لاختلاطهن بنساء من طبقات مختلفة متباينة المشارب والتهذيب والنظافة وقد بلغ مجموع نفقاتهِ نحو ٤٥٠٠٠ ربية جمعت نصفها من اهل الثراء

ومن مآثرها انها رضيت بان تتولى رآسة خزانة السلام في بغداد لما عرضت عليها ذلك اللجنة القائمة باعمال هذه المكتبة في شهر مايو ١٩٢١ وقد تجدد انتخابها في هذا المنصب في شهر مارس ١٩٢٢ لما بذلتهُ من الهمة في حفظ كيانها وتنظيمها وتوسيعها

ونود ان نجعل مسك الختام لمقالنا هذا نظرة وجيزة في مؤلفاتها التي يستشهد بها المؤلفون والكتبة من الاوربيين والعرب فنقول لم تكتف هذه المستشرقة الشهيرة من رحلاتها برؤية البلدان والامصار والتعرف بسكانها وزيارة اطلالها ودوارس معالمها زورة عجلاذ بل انها تعمقت في درسها وسخرت قلمها السيال لوضع كتب ممتعة فيها تشهد لها بطول الباع في البحث والتنقيب والاطلاع الواسع على المسائل التاريخية

وقد ساعدتها معرفتها اللغات على الاجادة في الابحاث فانها تعرف من اللغات الاوربية الانكليزية والفرنسية والالمانية ومن اللغات الشرقية العربية وقليلاً من الفارسية . واليك جدول مؤلفاتها

(١) الغامر والعامر Desert and Sown

(٢) من مراد الى مراد Amurath to Amurath

(٣) الف كنيسة وكنيسة Thousand and One Churches

كتبت هذا الكتاب باشتراك المستر رمزي

(٤) الأخيضر وهو بحث مطول عن تاريخ قصر ترى اطلاله في العراق

(٥) تركيا آسيا كتبتهُ في ابان الحرب في البصرة Asiatic Turkey

(٦) Review of the Civil Administration of Mesopotamia

وهو بيان مفصل عن الحكومة الملكية البريطانية في العراق يقع في نحو ١٥٠ صفحة من القطع الكبير الخارق . قدمتهُ الى دار الندوة البريطانية ومجلس العوام. وفيهِ معلومات واسعة عن العراق واحوالهِ الاقتصادية والسياسية والادارية والمعارف وفذلكة عن ثورة العراق الشهيرة التي شبت نارها سنة ١٩٢٠

ومن يقف على هذا البيان يعرف مقدرة هذه النابغة في ايراد القضايا بلغة سياسية وافراغها في قالب بديع يوافق الغاية التي وضع لاجلها حتى ان شركة روتر روت خبر هذا البيان في احدى برقياتها عندما تلي في لندن

وقصارى القول ان المس جرترود بل مستشرقة عالمة ورحالة كبيرة وسياسية محنكة ومؤلفة مجيدة وفاضلة تعطف على الانسانية المؤلمة وصديقة للعرب وقد اجتمعت فيها كل سجايا النبوغ فهي من النابغات اللاتي يفتخر بهن عصر الحضارة والعمران

بغداد يوسف رزق الله غنيمة